أحمد عمران الزاوي

القومية العربية بالمفهوم العلمي الثوري

منشورات الطليعة
تونس - 2010

منشورات الطليعة العربية في تونس

القومية العربية

بالمفهوم «العلمي» والثوري

أحمد عمران الزاوي

ينســاح الوطن العربي فوق مساحة جغرافية تزيد على أربعة عشر مليون كيلو متر مربع:

- مكوناً صلة اتصال أبدية بين قارتي آسيا وأفريقيا ممتداً بكامل أبعاده على الأجزاء الأهم من هاتين القارتين.

- فهو يحتضن الوجهين الشرقي والجنوبي للمتوسط ويتبعه على ناصيته في الغرب ويستغرق من الشواطئ الشرقية للأطلسي حتى بلاد السنغال.

– ويطوّق بساعديه كامل البحر الأحمر من ابتدائه في السويس حتى انتهائه في باب المندب.

– ثم يزحف إلى جيبوتي والصومال ويحيط بالسودان شرقاً وغرباً وجنوباً ليتجه إلى ليبيا والجزائر والمغرب حتى يلتقي مع مصب السنغال في الأطلسي.

– أما في الجنوب الشرقي فالخليج يشكل استراحته البحرية ليتمطّى إلى حدود تركيا، محاذياً زاغروس التي تفصله عن بلاد فارس.

هذا الوطن:

قيل في القديم: «هو بستان الحضارات».

وهو قول تؤيده ثوابت التاريخ فأنت لو حذفت من التاريخ حضارة «السومريين» و«الأكاديين» وتجاوزت خوالد المصريين والآشوريين والبابليين والكلدان والأنباط والآراميين والتدمريين.

لن يبقى بين يديك غير مسوخ حضارية مقطوعة الجذور هزيلة الفروع.

إن حضارة اليونان والرومان، ابتدأتا كفصلين من فصول الحضارة العربية القديمة، حيث ترعرعت على موائدها الفكرية الطافحة. حتى إذا تمثلتا ما عليها من أصناف الحكمة والعلوم عكفتا على ما تمثلتاه تعديلاً وتطويراً ثم أعادتاه بثوبه الجديد إلى أجدادنا، فعكفوا عليه، تعديلاً وتفصيلاً ورفعاً وضعاً حتى استطاع أن يحمل اسم الحضارة العربية.

ولا أظن:

أن مثقفاً في هذا الزمن لا يعرف الكثير أو القليل عن «القدس» التي تنقلت على مدى الأزمنة. فقد أخذت اسمها الأول «يبوس» من اليبوسيين الذين بنوها، ثم أورشليم (مدينة السلام) ثم إيليا (القسم الأول) من اسم الإمبراطور (إيليا هاد ريان) ثم القدس الذي أعيد إليها من صلاح الدين، وكان النبي محمد (ص) أول من أطلق عليها اسم القدس.

كما لا أظن أن مثقفاً في هذا الزمن:

لا يعرف شيئاً عن «دمشق» أقدم مدينة مأهولة في التاريخ.

«وبيبلوس» التي انطلقت منها صناعة الورق والكتاب اللذين أخذا اسمهما منها «بيبر» و«بابل».

و«بيروت» أم القوانين.

و«أنطاكية» مركز الانطلاق المسيحي.

و«الإسكندرية» التي بناها الاكسندر بن فيليب الإغريقي.

ـــ وحمورابي المشرّع الأول، الذي قنّن في /٢٩٨/ مادة أمور المال والزراعة والأسرة وأنواع الاعتداء على المجتمع والأفراد.

ومن قبله «الفينيقيون» الذين أنشأوا «جبيل» و«صور» و«صيدا» و«بيروت» و«أرواد» و«قرطاجة» و«حضرموت» و«ملقة» و«قادش» و«مالطة» واكتشفوا الأبجدية، التي اعتبرت أعظم إنجاز حضاري في التاريخ.[١]

تلك بؤرٌ حضارية:

أضاءت ظلمات العصور بما كانت تختزنه من وقود «الجمال» و«الفكر»، حتى إذا جف الوقود ونضب نبعه، همدت تلك الأضواء هموداً يشبه الموت. ومع هذا التدهور الذي صار في متناول أية معرفة، فما يزال الكثيرون من العرب، حتى المثقفين مشدودين إلى ذلك الماضي «بُعجرَه وبُجرَه»[٢] لا يريدون الانفكاك مع أن الحضارة قفزت من فوقه وفرضت على أنماط الحياة وضروب التفكير نفسها.

نعم:

إنه لمن دواعي فخرنا أن تكون خيول أجدادنا، قد صهلت فوق البيرينه وزغروس والأمانوس. وأن تكون قبضاتهم قد دقت أبواب روما ولابواتيه. وأن قيادة العالم «حكماً وعلماً وفناً» ظلت في أيديهم مدة تزيد على سبعة قرون.

فمنذ ثلاثين قرناً قال الجامعة بن داوود: كتب على الأرض أن تستقبل وتودع جيل يمضي وجيل يأتي، إلى الأبد.

لقد صدق الجامعة.

فما من أحد يستطيع كتمان إعجابه ببناة «الأهرام» و«برج بابل» و«الحدائق المعلقة» و«مقبرة الملوك» و«بعلبك» و«تدمر» و«ماري»..

كذلك مع اختلاف الصورة والتصور:

تبهرنا اليوم «ناطحات السحاب» و«الجسور المديدة المعلقة» و«أنواع الاختراعات» التي سهّلت مصاعب الحياة. و«هذا الجهاز العجيب» الذي لا يتجاوز مساحة الكف يسمعك صوت صديقك المتكلم من أقصى الدنيا ويريك وجهه وشخصه، حتى ليكاد ينسيك ذلك الذي عنده علم من الكتاب[٣] الذي قال لسليمان «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك».[٤]

ولكن:

مثلما لم ينتفع المصريون والبابليون بشكل

دائم، بمضغ الماضي.

لم ننتفع بالاسترخاء تحت الأبراج مكتفين باستذكار صهيل الخيول ومناعة القبضات القديمة فالشاعر كان على صواب عندما قال:

إن الفتى من يقول ها أنا ذا

ليس الفتى من يقول كان أبي

أيها القارئ سوف أكتفي بالوقوف على رؤوس الأحداث للإطلال منها على حجوم الأمراض التي تعاني منها الأمة، ومن ثم لإبداء وجهة النظر في مكافحة تلك الأمراض.

ففي الكتاب:

(**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) البقرة ٢/١٣٤.

(**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**) الإسراء١٧/٣٦.

وفي الأثر: «لا تقسروا أبناءكم على أخلاقكم فقد خلقوا لزمن غير زمنكم» (علي بن أبي طالب).

وقد فهمت من الكتاب والأثر أوامر الله بالاستمرار على التطور المرن. فلا تنظر ولا تسمع ولا تحكم بعين سواك وأذنه وفؤاده.

وفهمت تبعاً لذلك: أنه فيما خلا عقائد التوحيد والإيمان بالثواب والعقاب وقدرية الموت والحياة، والبعث والنشور.. ثمة حثٌ إلهي بلغ حدود النهي والتهديد على ضرورة الاستخدام الذاتي لقدرات السمع والبصر والعقل.

إذ على هذه الثلاثية قامت «قاعدة الاختيار» و«على الاختيار» قامت «مؤسسة الثواب والعقاب» لذلك قال الكتاب «إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا» وإذا ربط المسؤولية بهذه القوى، سبقها بالنهي في عبارة «لا تقفُ ما ليس لك به علم» أي «لا تتبع ما ليس لك به علم».

أي: لا تقل سمعت ولم تسمع أو رأيت ولم تر، أو علمت ولم تعلم.

وإذ نوقف هذا الاسترسال فلكي نفسح المجال للحديث في المواضيع التالية:

- القومية العربية، تعريفها وما آلت إليه.
- البعد الزمني لاستعمال كلمة عرب.
- مصدات الانبعاث القومي.
- تحديد أوصاف الثوار.

تعريف القومية العربية، وما آلت إليه

القومية العربية: هي الهوية التعريفية للمجموعات البشرية التي انساحت فوق البقاع الجغرافية المعددة في بدء المقال.

أما ما آلت إليه، أي ما وصلت إليه.

فهو الانهيار حتى الحضيض.

لقد كانت آخر خفقات سراج المجد، حينما طرد العرب من الأندلس عام ١٤٩٢م، يوم وقف آخر ملوك العرب، يبكي بين يدي أمه حظه العاثر وملكه الداثر فأجابته ببيت من الشعر، سار حكمةً على الدهر.

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال

منذ ذلك الوقت بدأنا نرى بالأيدي بدلاً من العيون.

ظلت رقابنا مقرونة إلى النّير التركي مدة تزيد على أربعة قرون.

وحينما عدنا إلى الحياة، عدنا بشكل موارب، إذ بينما كانت الأمم تسير بالطيارات والسيارات والبوارج، بدأنا على الأقدام.

وليس ذلك فحسب، بل على رؤوس النكبات، بأقدام حافية راعفة بالدماء ومثل العميان لا نرى الحفر قبل الوقوع فيها ولا المصدات قبل الاصطدام بها فالتجمع السياسي الذي يعبئ الجميع تحت قيادة واحدة فقدته أمتنا منذ أن طردنا من الأندلس.

فمن ذلك الوقت، نحن أقزام بين الجبابرة جزّأونا فلم نعارض، فرضوا علينا القول والعمل والأخذ والعطاء، فكان ذلك هيّناً بما في الهوان من المعاني ليّناً بما في

اللين من الضعف، مطواعاً بما تعنيه الطاعة من الاستخذاء.

نعم:

إنــه لمن دواعــي الفخر أن تقرأ صــك أستاذيتنا الأممية، في صدر القاعة الشرقية من متحف «اللوفر» محفوراً بالعبارة الآتية: «مــن الواجب على كل مثقــف في الكون أن يعترف بأن له وطنين: أولهما سورية والثاني وطنه الذي ولد فيه».

قلت:

إن كان علــى كل مثقف كوني أن يعترف بأستاذيتنا.

أليس جديراً بنا أن نعرف الأسباب التي بوأتنا ذلك المكان الرفيع.

والأســباب التــي أســقطتنا مــن ذلك الشاهق؟

أليــس جديراً بالمواطن العربي أن يحفر في الزمن ليجلو جلاميده عن المســاهمات الحضارية التي ساهمت بها الأمة؟

أيها القارئ:

بعيداً عن التعصــب والتفاخر الكســول واستنفاراً للهمة التي تراكمت عليها ظروف اليأس ألتمس مرافقتــي بعض الوقت على دروب التاريــخ لنرى فيه ملامح المســاهمة الحضارية التي ســاهمت بها الأمة العربية وقدمتها إلى العالم.

ليس للبكاء علــى الأطلال، بل لبيان أن ما قدمناه الذي حقق لنا الســيادة والريادة كان إبداعاً غير مجلوب وخلقاً غير مسبوق.

فالفرســ واليونان.. بعــد أن اعتمدوا على بســتاننا الحضــاري «أخــذاً وعطاءً وتفضــيلاً وتعديلاً» أعادوا إلينا ما أنتجوه، فأخذنا وأضفنا وفصّلنا وأسقطنا. وإنه لمن قلة الإنصــاف عند أي باحــث ألا يرى في «الفارابي» غير صورة مصغرة عن «أرسطو» وألا يرى في ابن ســينا، غير نســخةٍ منقولةٍ عن «جالينوس» أو «أبقراط».

فالحضــارة من علمٍ وفنٍ وحكــمٍ، نهرٌ يخترق الزمن ليصب في الأبد.

وما مياهه المتدفقة غير تذكير الحاضرين بالغابريــن، واستحضــار لمتروكاتهم والنهر الحضــاري على تعدد الروافد يحمل اسماً واحداً فقط هو «نهر الحضــارة الإنسانية» مجرداً من الجنس واللون.

بعد هــذه الإشارات الخاطفــة، أبدأ بالبداية التي تبرز الأسباب الحقيقية لما كان ولما هو كائن ولما يجب أن يكون.

١- الجبال التــي قامت بيننا وبين بلاد فارس:

المتوسط الذي فصلنا عن أوروبة.

والأطلسي والهادئ اللذان فصلانا عن بقية الأمم.

فرض على أبناء هذه المجوّف، وحدة اللغة والمناخ والعادات.

إن قارئ التوراة الذي يقرأ فيها رحلة إبراهيم الخليل وابن أخيه لوط وحاشيتهما المؤلفة من أربعة آلاف شخص التي انطلقت من «أور» الكلدانية على الشاطئ الشمالي للخليج وانطلقت في أرض العراق نحو الشمال محاذية مجرى الفرات مارّة بعانة وهيت ومستريحة في حاران (حرّان) ومنها إلى دمشق، فأرض الحثيين فسيناء فممفيس وعودة هذا الجمّ الغفير من الطريق إياها مروراً في الذهاب والإياب بعددٍ من الأقوام، الذين تبادلوا معهم الحديث والكلام، قارئ التوراة، حينما لا يرى أي دليل على وجود ترجمان بين الحاشية وتلك الأقوام، لن يزول استغرابه إلا إذا اقتنع بأن لغة واحدة كانت سائدة في هذه الجغرافية الواسعة، لا تختلف إلا باللهجات بين الأقوام والقبائل.

٢- إن حاجة التواصل وحاجة الإنسان الأول إلى التماسك الاجتماعي، سبب وجود لغة التخاطب.

ومنذ أن أدت وظيفتها بدأت في أن تصبح الهوية المعبرة عن الناطقين بها.

مدة لا يعرفها إلا الله ظلت اللغة مقتصرة على الكلام لأنه كان يكفي حاجة التواصل.

أما الكتابة فقد قدمت -فيما بعد- على جناح التطور.

لقد بدأت بما يسمى «الهيروغليفية» والهيروغليفية ليست لغة، بل هي طريقة للتعبير باليد بدل اللسان وهي تتألف من معنيين: «هيرو- أو أوري» أي «النقش وجليغو» أي لوح الطين.

فالهيروغليفية التي كانت تفاهماً بالصور الصامتة تطورت صورها فضمرت وأصبحت مثل المسامير فسميت «الكتابة المسمارية».[٥]

أما الكتابة التي بنيت على الحرف، والتي تحدد بها البدء الحضاري فقد وضعها الكنعانيون أي «الفينيقيون» الذين تسلسلوا من كنعان، من فوط، من مصرايم، من مردوش، من حام بن نوح.

لقد رصد الفينيقيون حنجرة الإنسان ورمزوا إلى كل صوت برمزٍ سمي حرفاً تأكيداً لاستقلاله عن بقية الرموز فهو

في استقلاله عن سواه شكلاً وعملاً دقيق الخصوصية «كحرف الشاهق» من الأرض.

اثنين وعشرين حرفاً جمعها الأجداد في «أبجد»، «هوز»، «حطي»، «كلمن»، «سعفص»، «قرشت». ثم وجدوا ستة أحرف أخرى جمعوها في «ثخذٌ» و«ضَظَغٌ».

تلك الحروف -كما قلنا- أعظم إنجاز حضاري سار بها:

- السريان الآراميون، إلى الشرق ووصلوا بها إلى الهند.

- والفينيقيون، إلى اليونان ومنه إلى أوروبة قاطبة.

- والعروبيون الأنقياء إلى الجزيرة.

لقد ظلت الأمم الأوروبية -كما يقول بريستد في كتاب العصور القديمة- حتى سبعمئة سنة قبل الميلاد خائفة من أوراق البردي التي كانت تحمل تلك الحروف.

فأنت إذ تتجول في اللغات الإنسانية كافة، تجد كلمة «ألفابه» المعبرة عن مجموع حروف اللغة وهي مأخوذة من «الألف والباء» في «أبجد».

أيها القارئ:

مع أن الدخول إلى وادي اللغات هو من اختصاص الأخصائيين فقد قمت بهذه المجازفة العجولة لأبين أن ساكني هذا المجوف الجغرافي أول من عرف الهيروغليفية، والمسمارية، ثم أبجد.

إن الإسلام الذي انتشر باللغة العربية المتطورة والنبي الذي تكلم بها والقرآن الذي أوحي باللغة إياها.

طوى من التداول والتعامل «لهجة الفينيقيين» و«لهجة السريان الآراميين» واعتبر اللهجتين أعجميتين، فالأعجمية من العُجمة، والعُجمة هي عدم الإفصاح في الكلام ولكنها جميعاً تلتقي بأصل واحد.

ومثلما كان شهداؤنا من قبل يتقاطرون إلى الشهادة قائلين: «وعجلت إليك رب لترضى» هكذا ثوار الوحدة وفدائيو الوطن يتقاطرون إلى أشداق الجهاد وهم يقولون «وعجلت إليك شعبي لترضى».(٦)

أيها القارئ:

جميعها مجبولة بالنفاق:

- التصريحات الوحدوية التي يطلقها الإقليميون.

- اللقاءات والمؤتمرات التي يخفي بها الإقليميون إقليميتهم.

- الخطب الرنانة، والمقاطع البلاغية، عن الحرية والديمقراطية، واستعادة المجد القومي بالدبلوماسية دون ثورة اجتماعية.

- ذلك العناق الذي امتلأ بالنفاق كلما التقى مسئولان إقليميان.

- تلك الأخوة التي تملأ رسائل الإقليميين، وهي في الحقيقة، قشرٌ يغطي ألدّ الخصام.

القارئ العزيز:

أما وقد ذهب الزمن بي كل مذهب وبلغت من الكبر عتياً أرى من بعيد وحدة الأمة وأحس أنني لن أعيش لحظات السعادة تلك.

ومع هذا فإن لي من تجاربي وبياض لمتي ما يسمح لي أن أضع بين يديك نصائحي عرضاً لا فرضاً وتقريراً لا قراراً:

- الحلول في ظل التجزئة لن تكون غير حلول جزئية.

- الوحدة هي قدر الأمة والنضال في سبيلها هو فرض عين لا يستثنى منه شخص.

- لن يكون هنالك تحرر من الجهل والتخلف إلا في ظل الوحدة.

- إن قوى الاستكبار في العالم قد تغفر أي شيء سوى التحرك الوحدوي، لأن هذا التحرك هو ألدّ أعداء هذه القوى منذ مؤتمر لندن في عام ١٩٠٤م.

وللمثال أورد باللهجات مثالاً:

كان المؤرخ «أحمد شيخ داوود» قد أورده.

الجمل يرعى عشباً	اللهجة العربية النقية.
جملو روعي عسبو	اللهجة السريانية.
جملو روعي عسبا	اللهجة الفينيقية.

فالحدود المانعة: مثلما فرضت وحدة الاستقلال الجغرافي فرضت وحدة اللغة فما تختلف إلا باختلاف لهجات القبائل.

٣- تلك الوحدة الجغرافية والمناخية واللغوية: لم تتطور إلى وحدة سياسية إلا في وقت متأخر أي إن العرب لم يعرفوا تكتلاً سياسياً جامعاً بين مشرقهم ومغربهم وشمالهم وجنوبهم إلا بعد الانبعاث القومي.

قبل انبعاثهم القومي كانوا أشتاتاً يحملون اسماً واحداً ولكنهم لم يكونوا كياناً سياسياً واحداً.

لقد جاء في ص١٩ ــ من المجلد (١-٢) من قصة الحضارة:

إن «هيرودوت» أبا التاريخ، أكد أن أقدم استعمال لكلمة «عرب» كانت في عهد «كيبوس» أحد فراعنة الأسرة الرابعة التي حكمت وادي النيل في القرن الثلاثين قبل الميلاد إذ سخّر هذا الفرعون جميع

المصريين لخدمته حيث عين طائفة منهم لقطع الأحجار من بلاد العرب ونقلها إلى مصر.

وفي حفريات آشور ظهر نص محفور على جبهة عريضة من الحجر المصقول تضمن وصفاً لحملة «شالما نصّر» في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ضد ملك دمشق «جنديبو العربي».

وورد في سفر إرميا (٢٥/٢٤)[٧] العبارة التالية:

«وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذي بجانب الكوشيين»[٨] وفي ص ٢٣ من قصة الحضارة المجلد الثاني.

«الحضارة – هي هنا الزراعة واستئناس الحيوانات ظهرت أولاً في بلاد العرب» وثمة شخصيات عربية كان لها تأثير كبير على حركة التاريخ الإنساني نذكر منها:

في الإمبراطورية الرومانية:

«فيليب العربي» إمبراطور روما، تمثاله في الفاتيكان أصر على بقاء لقب العربي للدلالة على أصله.

«جوليا سوريا»: إمبراطورة في روما، تمثالها في الكابيتول.

«جوليا ميزا»: إمبراطورة في روما، تمثالها في الكابيتول.

«هيليو جبال» إمبراطور في روما، من أصل سوري ومعنى الكلمة «سبحان الخالق».

«كاركلا» إمبراطور روماني هو ابن جوليا دومنا ومعنى الكلمة حصن الرب.

«سبتيموس سفيرو» الإمبراطور ذو الأصل العربي.

«جوليا دومنا» الإمبراطورة العربية ومعنى الكلمة «نظيرة الرب» وقد عبدها الرومان وحولوها إلى آلهة.

وقال المؤرخ «كون» الأستاذ في جامعة بنسلفانيا:

«أثبتت الحفريات بالقرب من تدمر أن الصحراء العربية كانت جنة من الخصب قبل التصحر، وهي مهد الإنسان القديم «سابيناس» كما أنها المكان الذي انطلقت منه جميع الأقوام التي سكنت الأرض».

على أن الشيوع السياسي لاستخدام كلمة «عرب» بدأ مع الدعوة الإسلامية إذ وردت هذه الكلمة في القرآن بالمعاني التالية:

– عُرباً أتراباً: أي جمع مفرده «عَرُوب» وهي ذات الأسنان الناصعة البياض، الضحوك.

- أعراب: أي أهل البدو والوبر.

- عربـي: بمدلول بشـري، حيث وردت بهذا المدلول في عشر آيات منها وصف للنبي محمد(ص) «أنه نبي عربي».

وفي لسان العرب لابن منظور:

«قال بعضهم: أول من نطق بالعربية وهو يعرب بن قحطان «أبو اليمن» إرفخشـد بن سام، بن نوح. والنسبة إليه قحطاني».

تنتسـب إليه قبيلة «جرهـم» التي تزوج منها إسماعيل ونسل نسله.

وقال آخرون:

«لقد نشـأ أبنـاء إسـماعيل في العربة بتهامة لذلك سُمّوا عرباً».

وروي عن النبي (ص) قوله:

خمسـة أنبيـاء من العـرب هم: محمد واسماعيل وشعيب وثمود وصالح.

٤- أما القومية التي سادت في أوروبة منذ القرن التاسـع عشر فلم تحظ بتحليل اجتماعـي متفـق عليـه، إذ لايزالـون في نظريـات متعددة حول الأصـل الاجتماعي الذي انبثقت عنه.

فالقائلون:

بنظرية «الرّس - الدم - الأصل» قوبلوا بالوقائع القائمة في الحياة والداحضة لهذه النظرية فما من دليـل حتى الآن على نقاء الدم وصفاء النسب في أمة من الأمم.

عـدا عن ذلـك فثمة أمم مسـتقلة عن بعضها مع أنها تشترك مع سواها في «اللغة» و«الدين» أو «التاريخ».

لذلك قالوا متفقين:

لا يكفـي الادعاء بما سـبق بل من أجل الانبعـاث القومي لا بدّ مـن وجود العنصر الذاتي الذي هو حاجـة الأمة لكي تنتفض من حالة التجمد إلى حالة التمدد.

هذه الذاتية الخارقة

- هي التي حركت المشـاعر الثورية في الدويلات الألمانية ودفعت بها إلى التوحّد في منتصف القرن الثامن عشر.

- وهـي التي دفعـت غاريبالـدي إلى اجتراح معجزة الوحدة الإيطالية.

- وهي التي جمعت أشتات يوغوسلافيا من تحت أيادي الروس والأتراك والنمساويين وكونت الأمة اليوغوسلافية.

وقالوا:

إن جميع أنـواع الانبعاث القومي، تمت على مراحل.

وجميع تلك المراحل كانـت عنيفة، فلم تتحقق إلا على جثث التشـكيلات السياسية والاجتماعية القائمة.

ولكن؟! ما هي هذه الذاتية الخارقة؟

التـي تنفخ حياة الوحدة في الأعصـاب الخامـدة وتمسـح جلاميد الظـروف عن الجمـر القومـي، فتخرق الحـدود وتمزق السـدود وتبني الـذات القومية على جثث التجزئة واللامبلاة.

سؤال جوهري:

أجاب عليه علماء الاجتماع بقولهم:

«إنهـا وحدة الأمل التـي خلقتها وحدة المصير وإرادة العيش المشترك».

لو أسقطنا هذه «المقاربة التقريبية» على أمتنا لتبين لنا الآتي:

كانت الأمة في البدء، تعيش لغة واحدة، وقيماً واحدة، وعادات تكاد أن تكون واحدة. ولكن ذلك الخليط القبلـي لم يحقق الكيان السياسي الواحد لأنه كان يفتقر إلى الذات القومية التي تتشـكل بوجودها شخصـية الأمة الواحدة. وحينما صـهر الإسلام تلك القبائل في كيـان واحد، هو الدولة، انبثقت من ذلك الكيان ذات خلاقة، حولت الأفراد إلى مردة مؤمنين بأنفسـهم أولاً وبرسالتهم الأخلاقية إلى الأمم ثانياً.

لقد كانـت وثيقة المدينة التي وضـعها النبي حينما وصل إلى يثرب مهاجراً: أول وثيقة في التاريخ -كما يقول الطبري في تاريخ المدينة- أكـدت على أن المواطنية هي أولاً وقبل كل شيء.

لقد جمعت بين الأنصـار، والمهاجرين، والنصـارى، واليهود وسواهم ممن يقطنون فيها بدافع الأخوة والمصـير الواحد، حيث نصـت على أن لا فرق بين هذه التجمعات فالمدينـة «حـلال لأهلهـا»، «حـرام على غيرهم».

والجميع بمـن فيهم اليهود، لا يختلفون عن المسلمين في استحقاق الحقوق الإنسانية كافة والإكراه الذي منعه الإسلام على الدين «لا إكـراه في الديـن ــــ بقرة ــــ ٥٦٢/٢» منعه في الأمة.

حيث أكـد القـرآن على وحـدة الأمة في سـور «المؤمنـون» و«الأنبيـاء» و«يونس» و«البقرة» و«آل عمران».

بقوله: «وإن هذه أمتكم أمة واحدة».

والآن: بعد هذا التجوال يعلو السؤال:

- لماذا -وقد كنا في المقدمة-تهورنا إلى المؤخرة؟

- تمرغت بغداد عند أقدام هولاكو.

- وانحنت قامة دمشق أمام تيمورلنك.

- وطردنا من الأندلس.

- واحتلنا الصليبيون، ثم السلاجقة التركمان فالعثمانيون، فالغربيون.

- تلاقينا مع الغرب الديمقراطي، تلاقي الضعف مع القوة، والعبودية مع السيادة، والتخلف مع التقدم، فجعلوا من وطننا الكبير أوطاناً ومن أمتنا الواحدة أمماً، ومن تاريخنا تواريخ.

جزّؤونا وأقاموا من تلك الأجزاء إمارات ودويلات ومنحوا تلك المسوخ استقلالاً قانونياً وجغرافياً ونصبوا حكاماً تابعين لهم مثلما يتبع الذيل صاحبه فتسلطوا على العباد وتمكنوا من ثروات البلاد التي صادروها ووزعوها على الأبناء والعملاء والمحاسيب والمزاريب.

- ويوماً بعد يوم تزداد صلابة السدود أمام الوحدة، وتزداد سماكتها وتتعمق جذور التفتت في الوجود الاجتماعي وتنتشر عمودياً وأفقياً في الجنس والطائفة والعشيرة.

واقعٌ شديد الوطأة وأحداثٌ كاوية.

ولكنه ــ مع شراسته وسطوته ــ لم يستطع أن يلغي اسمنا أو لغتنا أو أصالتنا بل إن جيناتنا الحضارية لتستفيق من غفوتها. وتتمرد من حين إلى حين في مواجهة أعداء الأمة.

سوف أقتصر هنا على بعض أعداء أمتنا، عن أحدّها ناباً وأطولها وأشدها ذراعاً: «الشعوبية» و«الإقليمية» و«الأقلية».

هذه الثلاثية، هي التي جعلتنا من ركاب الدرجة الثالثة من قطار الحياة، حيث «الخبز قليل والماء قليل والهواء ثقيل».

فالإقليمية:

نسبة مشتقة من «الإقليم».

والإقليم هو في الأصل جزء جغرافي من الوطن الذي يتكون عادةً من أقاليم متعددة ترتبط بالأصل وتعود إليه.

ولكن لدينا غير ذلك تماماً.

فقد غدا دولة مستقلة عن الجسد الوطني الكبير.

استقل بدستوره وقوانينه، وجيشه وأمنه وممثليه.

واستتبع هذا التشتت بدعة استقلال القرار الإقليمي، في السلم والحرب والعلاقات والمعاهدات، حيث لم يبق غير قشر عربي، فارغ من المضمون ولقد كان أول من مارس هذا المنكر في العالم العربي، الرئيس أنور السادات الذي امتطاه إلى الكنيست ثم كامب ديفيد متغاضياً عن الصفع الكلامي الذي جوبه به من قبل بيغن.

ثم امتطاه فيما بعد عرفات إلى أوسـلو، ثـم بعدهما «الأردن» وغيره فالإقليمية التي اعتمدتهـا الأقطار العربية تلـزم كل إقليم ألا يتجـاوز حـدوده الجغرافيـة وحدوده الدسـتورية مهما حل من الخراب والتدمير في جاره الشقيق.

فالوطن الذي عاش الوحدة زمناً طويلاً يعيش اليوم التشـتت الإقليمي الذي فُرض عليه.

حينما نشـأت الجامعـة العربية، قامت على سبع دول.

وهي الآن ثـلاث وعشرون دولة، آخرها «جـزر القمر» وهي مسـخ إقليمي، لا تزيد مسـاحته على ألـف وثمانمئة كيلو متر، ولا يزيد عدد سـكانه على أربعمئة ألف نسمة إلا قليلا، وهو أرخبيل يتألف من أربعة جزر تتمدد على المدخل الشمالي لقنال الموزامبيق على المحيط الهندي. اسـتقلت عن فرنسـا في عـام /١٩٧٥/ وهـي تواجه اليوم حركة انفصـالية من أكبر جزرها «نغازيجة» التي تطلب الاسـتقلال معتمدة على مسـاحتها الواسعة البالغة مئة وسبعين كيلو متراً وعلى عدد المواطنين البالغ مئة وخمسين ألفاً.

وفي هـذا الوطن الكبير «جـزر القمر» الذي أصـبح عضواً في الجامعة وأخذ لقب الجمهورية الاتحادية الإسلامية، تسود ثلاث لغات إحداها اللغة العربية.

الأقليات:

وكانت وثيقة المدينـة، من قبل اعتبرتها مثـل المسـلمين في الحقـوق والواجبات ثم اسـتمرت فيما بعد لبنةً أساسية من البناء الاجتماعـي، إذ لم يكـن يطلب منهـا إلغاء تاريخها وحضـارتها. بـل كل ما طلب منها هو الاقتناع على أنه صار تاريخنا، لا تمارس الحياة الحالية، بمقتضى أعرافه وقوانينه. وقد رضـيت الأقليات بهذا المنطق واعتبرته منطـق الحيـاة النزاعـة إلى التحرك نحو الأمام. وعاشـت مع الكـثرة ظروف الحياة الجديدة فكانت القسـيم الشريف والشريك الصادق لأيام العسر واليسر والشقاء والهناء وظلت جزءاً أساسياً في البناء القومي.

ولكن المسـتعمر استهدف هذه الأقليات منذ بواكـير القـرن العشريـن، وأدخل في قناعتهـا أنها مسـتهدفة، وأن انقراضـهـا مرهـون بقيـام الوحـدة فحـل الذعر في الصـدور، وبدؤوا يعيشون الغربة في وطنهم الـذي ولدوا وتوالـدوا فيه منـذ أزمان لا يعرفها إلا الله.

الشعوبية:

نشأت الشعوبية، في أواخر الحكم الأموي.

من أبناء الشعوب غير العربية التي انتمت إلى الإسلام، ودخلت تحت حكم الدولة الإسلامية..

لقد ضاقت تلك الشعوب ذرعاً بمظاهر التميز التي ميز بها العربي نفسه، مع أن الجميع يعيشون في ظل الشريعة والأحكام الإسلامية، وأن الله، هو الذي خلق الناس شعوباً وقبائلَ ليتعارفوا لا لكي يتناكروا. (الحجرات ٤٩/١٣).

فكان العرب الذين يسمعون هذا الاحتجاج، يضيقون ذرعاً ويقولون:

أليس النبي عربياً؟

أليس القرآن عربياً؟

أليس الحديث في الجنة، باللغة العربية؟

ألا تكفي تلك الثلاثية، لكي تعتبر مميزات، تميز العربي عن سواه؟

ففي بادئ الأمر لم يكن هدف الشعوبية غير تحقيق المساواة والتوازن بين العرب وغيرهم. ذلك الذي ظل قانون الحياة والتعامل أكثر من ثلاثة أرباع القرن متأثراً بالنبي(ص) والصحابة والتابعين.

ولكنها منذ أواخر العهد الأموي تجاوزت مطلب المساواة. فقد تسللت إلى الممنوع وطفقت -وخاصة في بلاد فارس- تهوّن من شأن العرب، وتجردهم من المزايا، ولا ترى فيهم غير قبائل جاءت من البادية على أقدام حافية فغصبت العروش واستولت على الثروات، وبسطت السيف على ثقافة الأمم وحضارتها.

ثم احتدم الجدل بين الشعوبيين والعرب، حتى تحول إلى تشهير ومهاتراتٍ. فكان أبو بحر الجاحظ أبرز المدافعين عن العرب، فقابله الشعوبيون بالتشهير والشتائم ما جعل العلامة ابن المنظور يعرّف الشعوبي في «لسان العرب» بقوله: «الشعوبي هو من يصغّر في شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم».

تلك كانت شعوبية ذلك الزمن.

أما شعوبية الأزمنة التالية، فهي الأشد والأدهى.

لم تكتف بالتشهير والتحقير، وطلب المساواة، بل حفرت في التاريخ واستخرجت من مدفوناته أن العرب لم يسبق أن كانت لهم حضارة. بل كانوا -على الدوام- كتلاً من البشر الجوعى اقتنصوا مؤخراً طعام الأمم وحضارتها.

أما تسمية هذه الجغرافيا باسمهم، فلم يكن غير جزاف من التفكير، وقصور في التعبير، على أن هذا الفكر والفكر المضاد همدا هموداً يشبه الموت إبان الحكم التركي إذ مرت فوقهما أسطوانته الضخمة مثلما تمر المحدلة الجبارة على الطريق فتردم الحفر وتبتر النتوءات ويتساوى الجميع تحت قدميها بالذل والاستخذاء.

ولكن: بمجيء الاستعمار الغربي عادت إلى الشعوبية عناصر الحياة. فقد أوهمها أنه يستطيع ضخ الدماء في جسدها التاريخي قفزاً من فوق القرون. وهي -لسوء الحظ- تعيش هذه الأوهام.

كيف تحقق الوحدة؟ وما هي سمات الوحدويين؟

هل من أمل؟

إنه الهاجس الذي يسكن الصدور، وهو وإن كان سؤالاً من كلمات ثلاث فقد كتبت فيه مئات المجلدات وقامت حوله آلاف التصورات.

وذلك جميعه لم يتجاوز سقف الشروط التالية:

أ- إن الانتقال بالمواطن العربي من حالة الضياع التاريخي إلى حيث يجب أن يكون مهمة لا يستطيع القيام بها غير أفذاذ الأجيال والرجال، لأنها نضال يلتحم فيه الأبطال في صراع حتى الموت مع قوى الانفصال.

ب - أول ما يجب على أبطال الوحدة، إقناع الجميع بأن الامتلاء بالمشاعر القومية لا يلتقي مع الشوفينية على صعيد واحد. وذلك بأن يقرأ على الناس تلك الفصول الأخلاقية السامية التي ترافقت مع الأمة في كل بلد، وبالأخلاق إياها قبضت الأمة على زمام التاريخ الإنساني أكثر من سبعمئة سنة.

ج - إن فلاسفة التاريخ، أمثال «فيختة» و«مازيني» و«دوبروفسكي» وسواهم: أكدوا أن النضال القومي في سبيل التحرر لم يكن ولن يكون شوفينياً مهما رافقه من عنف.

د - لقد اتسع صدر الأمة لجميع أنواع المعارف عند الأمم، فتعاملت معها باحترام كبير، وقامت بينها وبين تلك المعارف حالة التكامل (عطاءٌ مع الأخذ، ورفعٌ مع الوضع)، دون اعتبار لغير الحقيقة.

فالخلق - كما قال النبي (ص)-كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله.

وفي ظل هذا الحكم العربي -دون سواه-

امتزجت فلسفة اليونان وفلسفة الروم والفرس والهند بالفلسفة العربية، والتقت تشريعات الإسـلام فنشـأ من الامتزاج والالتقاء ذلك المركّب الحضـاري العربي الـذي ظل ينير ظلام الأمم مدة طويلة.

هنا:

نرى مـن المفيد أن نتلـو بعض الأقوال التي صـدرت عن بعض المفكرين الغربيين الحياديين:

أ - قالـت «زيغريد هونكـه» في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»:

«هناك المئات من الكلمات التي نستعملها دون أن نتساءل من أين جاءت إنه من العقل أن نعرف الحقيقة، لأن لا عذر لأي مثقف في جهله بأنه مدين بهذا القدر إلى العرب».

ب - وفي كتـاب «أغلـى الأوقـات في الحضـارة العربية»، قال مؤلفاه: «بييرهيم» و«جون وولـف»: (أمن الضـروري أن نذكّر بأننـا مدينـون للعـرب «بالنظـام العشري الحسابي» و«مقدمة الطريقة التجريبية في الطب» و«مبادئ الرياضيات»)؟

«هل يمكن أن ننسـى أن ابن خلدون أول من وضع أسـس علم الاجتماع والتاريخ وأن بيت الحكمة الذي أسسـه المأمون في بغداد كان أول أكاديمية في العالم».

ج - في قول مشـهور للمستشرق «إرمائد أويل» جاء فيه:

«حينمـا كان الإمبراطـور الغربي يتعلم القراءة في شـيخوخته ويتلقى الكتابة على ألـواح من الشـمع، كان الخليفة العربي في بغداد يتمتع بثقافة عالية ويجتمع في بلاطه عشـرات العلماء والأدباء والشـعراء وكانت مكتبته ومكاتـب حواضـره الزاهرة تزخر بمئات الآلاف من المجلدات».

«حينما كان الإمبراطـور أوتو الكبير [٩] يخطب مبشراً بقدوم المسـيح في ذلك العام حيث يحبس الشيطان في قمم، وتبدأ مسيرة الألف سـنة السـعيدة- كانت مذهلات ابن سـينا قد عمت في الدنيا ولم يكن قد تجاوز العشرين سنة».

«حينمـا لم يكـن في أوروبة غير بضـعة عشر كتاباً ربطها «شارلمان بالسلاسل» كي لا تسرق كانت المكتبات ذات الربع مليون مجلد تنتشر في الحواضر العربية الزاهرة»

إن جامعة فاس، منارة العلم في عصرها، تخرج منها البابا سلفستر الثاني وتسنم سدة البابوية في سـنة ٩٩٩م ذهـل حينما حضر إلى القاهـرة، أذهلته مكتبتهـا ذات المليون وثلاثمئة ألف مجلـد، وموظفوها الثلاثمئة فقال قولته المشهورة:

«لا يوجد في أوروبة من يستطيع أن يكون بواباً على هــذه المكتبة، ناهيك عن التعليم، ففاقد الشيء لا يعطيه».

أيها القارئ:

لم أحشد هذه المعلومات لأبكي وأستبكي وأقف وأستوقف، بل لكــي أثبت أن العرب منيعــون على الفناء والذوبان في الشعــوب لأن في تكوينهم من الجينات الحضــارية ما يمكنهم من الانتفاض فوق عوامل القهر.

فاليــوم إذ تعيشــ الأمــة في أعداد من الأقاليم مسـفوحة الحدود فإن العمل على تحقيــق الوحــدة ومناعة الحدود يتصــدر الهمــوم كافةً، لأنها الأمــة الوحيدة في هذا الزمن لا تزال تعيش التفرقة والانقسام.

إن الأقاليم، جوارح اقتطعها الاســتعمار من جسد الأمة وفرض عليها عيش الأقزام في حــين ترك الجســد الأم في حالة الوجع والتشوه.

فــلا يهولنّ الوحــدوي مــا ينتظره من متاعب، فالحــركات الوحدوية لم تتحقق في التاريــخ إلا على جثث الأنظمة الدســتورية والقانونيــة والإدارية التــي كان يقوم عليها نظام الإقليم.

ولا يســتهيننّ الوحدوي بنفسه فحاملوا هــذا العــبء المقدســ كانــوا في كل عصر محراثاً اجتماعياً يعمل على قلب تربة النظام الاجتماعي وفكره القائم رأساً على عقب.

الهوامــش

١- قال أحد الصبية لأبي العلاء:

أ أنت القائل:

وإني وإن كنت الأخير زمانه

لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

قــال: نعم، فقال الصبي: لقد أتى الأوائــل بثمانية وعشرين حرفاً فهل لك أن تزيد عليهم حرفاً واحداً؟ فكان ذلك من مسكتات أبي العلاء.

٢- العُجَر والبُجر: مثل عربي يراد به: جميع المعايب التي تكتنف الشخص.

٣- آصف بن برخيا.

٤- المقصــود عرش بلقيس في اليمن. «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِــي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ»(النمل ٣٨/٢٧) و«قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ» (النمل ٤٠/٢٧).

٥- الكتابة في مصر القديمة كانت: الهيروغليفية للكهنة- الهيراطيقية للدواوين.

٦- هي جزء من الآيتين (٨٣-٨٤) من سورة طه نزلتا في موسى: «وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى × قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى» ثم صار يردده الشهداء فيما بعد.

٧- إرميا، أحد أنبياء إسرائيل بين ٦٥٠-٥٨٥ ق.م.

٨- الكوشيون: هم الأحباش.

٩- «اوتو الكبير» ملك «جرمانيا وإيطاليا»: هو مؤسس الإمبراطورية الجرمانية المقدسة سنة ٩٦٢ عاش بين ٩١٢-٩٧٣.

الطليعة العربية في تونس